عندئذ سعت ليفونيا الحزينة المنتحبة الى الصلح . ورد الشيخ علي على المبعوثين : « انتم تعرفون الشروط » . وسعى السيد الكبير لإرسال سفراء جدد الى موسكو . واعلن إيڤان هدنة تبدأ بابتداء الصوم الكبير وتنتهي بعيد الفصح . إلا أن الفرسان في نارفا خرقوا الهدنة واداروا مدافعهم نحو إيڤانغورود فارسل إيڤان الأمير تيمكين على جناح السرعة بمهمة لتدمير اثنتي عشرة قرية ليفونية ردا على الطلقات التي اطلقت من نارفا . ولكن هذا التدبير لم يؤثر على الفرسان الذين استمروا بإطلاق مدافعهم على إيڤانغورود رغما عن إرادة عمدة المدينة وتجارها . وكان سكان نارفا يخشون ان ينالهم نفس ما نال سكان القرى الليفونية الاخرى من مصير . فارسلوا تحت جنح الظلام مبعوثين الى ايغا نغورود يفاوضون باسمهم ويعلنون انهم لا يرغبون بديلا عن ان يكونوا رعايا القيصر المسالمين المخلصين . وتوجه مبعوثون منهم إلى موسكو مكلفين بالدفاع عن قضيتهم . ولكن إيڤان وضع شرطا لذلك ان يضعوا بين يديه مفاتيح المدينة ويسلموه شيلنبرغ قائد الفرسان .

اما ان يكونوا قد نفذوا هذا التسليم فامر مشكوك فيه ، ولكن المعركة اثناء غيابهم غدت أشد ضراوة وصاروا ينتظرون الإمدادات من السيد الكبير(*) وكان الروس مفتاظين الى أبعد الحدود ومستعدين للإفادة من أول فرصة للأخذ بثارهم . وانفجر الحريق في نارفا . وتروي الأسطورة ان جنوداً ثملين من الألمان دخلوا منزل تاجر روسي كبير كان يسكن المدينة وانتزعوا ايقونة للسيدة العذراء رأوها تتصدر المكان والقوا بها في مدفأة المطبخ فوقعت على الجمر ووجهها الى الاسفل ولكنها لم تحترق بل تسببت في إشعال الحريق . وقد لوحظ ان نصف المدينة قد أمسكت به النيران فاستفاد الجيش الروسي من هذه الفرصة للاستيلاء عنوة على أسوارها . وقد انقض الجنود دون ان ينتظروا أوامر من قوادهم واجتاز بعضهم نهر نارووا في قوارب بينما

(*) يقصد بالسيد الكبير رئيس الفرسان التيوتون وحاكم ليفونيا — المترجم —